قصة الطفل في مرحلة السبعينيات

لم يخفَ على الباحثين أهمية المرحلة التي انتعش فيها أدب الأطفال في العراق بعد ثورة السابع عشر الثلاثين من تموز عام 1968 حين عمدت الثورة إلى جعل تثقيف الطفل هدفاً يجب تحقيقه عن طريق الصحافة الهادفة والمدروسة ، فكانت البداية بصدور مطبوع مجلة ( مجلتي ) وكان العدد الأول منها قد صدر بتاريخ 1/12/1969 وعني هذا المطبوع بتزويد الطفل بالمعلومات العامة عبر أشكال التعبير ، التي ينشرها مثل القصص وحكايات البطولات بأساليب الكتابة المبسطة ، والرسوم الواضحة ، وكانت المجلة تصدر شهرياً في أول تأسيسها ، وعدد صفحاتها (36) صفحة) ، موجهة للأطفال في المرحلة العمرية من (6-9) سنوات( ) .

وبعد هذه التجربة الرائدة تمَّ إصدار العدد الأول من المطبوع الثاني ، وهو جريدة المزمار كأول جريدة مقدمة للأولاد في الوطن العربي وذلك بتاريخ 12/12/1970 ، وهي جريدة اسبوعية تتناول شتى المواضيع العلمية والثقافية والحكايات الأدبية فضلاً عن القصة والشعر ، موجهة للأولاد من سن (10-14) سنة لإشباع تطلعاتهم وإغناء امكاناتهم لغوياً وثقافياً ، وقد لاقت كل من المجلة والجريدة إقبالاً حسناً من الأطفال( ) .

وان الجيل الذي دخل الساحة الأدبية منذ بداية السبعينيات جيل انضجته التجربة الأدبية في الكتابة للكبار ، وفضلاً عن ذلك ، التجربة المصرية لكتابة الأطفال ، وجاءت كتاباتهم باسلوب عراقي متميز ، فالابداع العراقي انضج خبرة القلم العراقي الموجه للطفل ، لكنه ظل يعرض مضموناً بعيداً عن تقليد التجربة العربية تقليداً كاملاً ، وقد ساعدهم على ذلك الواقع الثقافي في العراق الذي شمل تغييراً كبيراً في التعليم والاذاعة والتلفزيون والسينما والمطبوع .

وإن هذا الانتعاش رافقه ازدهار في سعة جمهور القراء من الأطفال ونضج الاذهان التي أخذت تصدر نتاجاتها إلى الطفل باسلوب عصري .

وكان الكتّاب جاهزين لكتابة قصة الطفل ، وكان الاسهام ناضجاً أما أهم المؤثرات التي نقلت تجربة كتابة قصة الطفل في العراق إلى حيز الإبداع والتميز هي :

1- المؤثر السياسي

ان مرور الوطن العربي عامة والعراق خاصة بشتى أنواع الأحداث السياسية والثورات والتحولات في طبيعة الحكم أدى إلى توجه الكتاب إلى الاسلوب الواقعي في طرح الفكرة والمضمون .

إذ أصبحت كتاباتهم إلى الطفل ذات طبيعة قومية وسياسية وواقعية ، تقترب من اللون المحلي في الوقت نفسه .

وكانت هذه التوجهات تتمازج مع الاعتبارات الأدبية والفنية في قصص السبعينيات الموجهة للطفل عامة لكنها شكلت كثافة عالية في الطرح الواقعي في بداية هذه المرحلة الزمنية ؛ لأنها مرحلة التغير الشامل للحياة السياسية والاقتصادية والادبية والثقافية في العراق وفي الوطن العربي أيضاً .

وإنَّ النماذج القصصية التي نشرت في جريدة المزمار في أعوامها الأولى خير دليل على هذا الاستنتاج( ) .

وفي قصة ( رباح جديدة ) للكاتبة هناء العزاوي ، نقل للواقع ومشاعر الحرج التي يشعر بها الصبي ( صباغ الاحذية ) . الذي ترك مدرسته ليعيل أسرته بعد وفاة والده ، وتصوير لمشاعر الحرج والضيق التي يعاني منها هذا الصبي كلما مرَّ من أمام إحدى المدارس ، تهرباً من سماع احاديثهم ومرحهم ، وجاء الحل السليم في النهاية وهو واحد من منجزات ثورة (1968) ، ( التعليم الإلزامي ، ومحو الأمية ) واختار الصبي الطريق وحده هذه المرة طريق العلم والمعرفة .

وفي محاولة الكتاب لنقل الواقغ عالج بعضهم فكرة القصة ولغتها بواقعية شديدة لا تتناسب واستيعاب الأطفال لكونها نشرت في مجلة خاصة بهم . وذلك لرغبة الكاتب في تصوير البعد الآخر للحياة في العراق قبل الثورة ، وطرح قضايا بقيت معلقة في الذاكرة من أذيال الماضي كما في قصة ( حكاية من ليالي الحصاد ) حيث لم ينجح الكاتب في توظيف الماضي للطفل من أجل نظرة مشرقة للحاضر فجاءت قصته عن الفلاحة ( زهرة ) التي قتلت الشيخ لأنه طمع بها وأراد اغتصابها ، وقبل ذلك كان قد أسمل عيني والدها ، لأنه رفض مساعدته في ظلم الفلاحين ، واستخدم الكاتب في قصته الكلمات العامية لتقريب الصورة إلى اللغة المستعملة في الريف مثل ( الكلة ) وكلمات أخرى .

وبعد مقدمة يصفها الكاتب للحكاية يبدأ بسردها على النحو الآتي : ( كانت زهرة بنت الأرض الحلوة ، سمراء ، كلون الخبز الاسمر ) وعدد من الأحداث ، ثم تأتي النهاية : ( وفي يوم كانت زهرة تكمل ( كري ) النهر فاجأها الشيخ وأحد حوشيته ... وقف ازاءها يحملق فيها كالمجنون ، ضحك بشدة ، فزعت زهرة في بادئ الأمر ثم حملت مسحاتها وارتقت ضفة النهر ، سدّ الطريق عليها وهو يضحك :

- سأرغمك على النزول في ( الكلة ) قالها وهو يلهث كالكلب .

صممت ، وبدأت تستعد لثأرها القديم ، بدأ خوفها يسقط ، شدَّت أصابعها بقوة على عمود المسحاة ، وتدلى الحديد بعيداً إلى الأسفل ) .

إنَّ نشر أنموذج قصصي بمثل هذه المواصفات ، في مجلة خاصة بالأطفال ، يوضح لنا مسيرة القصة الموجهة للطفل ، وبعض عثراتها ، فهذه القصة ومضمونها واسلوب الكاتب ولغته لا يخدم قصة الطفل بشيء ، وانه فشل ، في المقارنة ، غير المباشرة بين ظلم الماضي للفلاح واستغلاله وبين الأمان الذي منحه الحاضر الثوري للريف من خلال شخصية زهرة ) ، إذ جعل الكاتب منها رمزاً للثورة على الظلم في الريف .

وقصة ( عامل النول ) ( ) التي تتحدث عن الظلم الذي احاق بأصحاب ( الحرف اليدوية ) ، حتى جاءت الثورة وغيرت هذا الواقع .

وليس غريباً على الكتاب العرب ومنهم العراقيون أن يكون ارتباطهم بالواقع والتعبير عنه متلازماً في بعض حالات النقل لما للظروف والاحداث السياسية سلطتها الكبيرة التي تتطاول على اقلام الكتاب وتفرض حقائقها على نصوصهم .

ونقرأ لزكريا تامر الكاتب السوري بهذا الخصوص قوله : (وعندما جاءت حرب حزيران ونتائجها ازداد ارتباطي بالواقع وصار أكثر حدة وصرامة ، وبدأت أنظر إلى الصغار نظرة مختلفة ) انهم الجيل الذي سيطلب منه في المستقبل ان يجابه عدواً شرساً ولذا لا بد من منحه الوعي وإرادة التحدي والرغبة العميقة في التغيير والحفاظ عليه . لابدَّ من ان يكون جيلاً قادراً على التضحية في سبيل الحرية والعدالة والفرح)( ) .

ونجد ان هذا المفهوم الذي طرحه هو تنظير لاحق يتزامن مع المفهوم النفسي والأدبي والثوري لدى كتابنا ويتجسد بشكل واضح ، في قصصهم للأطفال ، وبخاصة ، تلك التي توجه للأطفال من عمر (11 سنة فأكثر) لأنهم يمثلون مرحلة الوعي بالالتزامات الوطنية والقومية ، ومرحلة البداية التي يمكن ان تمنح الطفل فيها جرعات ثورية ، من خلال الأدب مستغلين روح البطولة التي تتأجج لدى أطفال هذه المرحلة . كما في قصة ( النهر والصخرة ) ( ) ، التي تعلم الطفل ان لا يتراجع عن المسار الصحيح مهما كانت العقبات ويبرز المغزى من القصة في جواب النهر للصخرة التي تعترضه وتطلب منه ان يغير مجراه .

( - الأنهار الضعيفة هي التي تغير مجراها ، أما الأنهار القوية امثالي فإنها تمضي دائماً إلى مام ) .

وكذلك في قصة ( الطريق الجديد ) ( )ومغزاها يجب على المرء ان لا يكون عبداً لغيره وفاقداً لحريته مقابل لقمة العيش وان العمل أساس حرية الإنسان وحفظ كرامته .

وعلى ما يبدو ان الكتاب العرب جميعهم يعيشون ظروفاً سياسية واحدة ويعانون من واقع تاريخي واحد ، فتجيء اقوالهم وتحدياتهم متقاربة . ففي مقابلة للشاعر العربي ( سليمان العيسى ) أجراها معه الكاتب العراقي ( حسب الله يحيى ) تحدث عن بداياته الجدية في الكتابة للأطفال فقال :

( أما بداياتي الجدية في الكتابة للأطفال كانت بعد نكسة حزيران عام (1967) لأني شعرت بالاختناق بعد هذه المأساة كما شعر كل عربي ، وأطبقت غيمة سوداء على عيني وبحثت عن نافذة للمستقبل تخترق هذه الغيمة السوداء فوجدتها في عيون الأطفال الذين يمثلون مستقبل امتنا العربية وتوجهت إليهم بكل طاقاتي الفنية وتجربتي القومية ، وكانت النافذة والملجأ والعزاء لي من تلك الحقبة السوداء ) ( ) .

وفي مقابلة ، أجريت مع الكاتب العراقي طلال حسن قال فيها : ( اني اسعى إلى أن أضع الطفل العربي ضمن عوالم الحقيقة ؛ لأن الطفل العربي يعيش في عالم ممزق مستلب ، مقموع ، ولكي أكون صادقاً ، فاني لا أهدهد الطفل ولا اجعله يغمض عينيه على عالم وردي كاذب بل أهزه واجعله يعرف الحقيقة وأدعوه إلى المشاركة في العمل ) ( ) .

وبذلك استطاع ( طلال حسن ان يقدم أنموذجاً قصصياً شديد الاختلاف عن تلك النماذج التي قدمها الكتاب الآخرون ، حيث انصب اهتمامه على الاشكالات الصريحة التي يعيشها الفرد العربي كما في تناوله لقضية فلسطين ) ( ) .

كما في قصصه ( العكاز ) و( الدرس ) و( رسالة مفتوحة من طفل فلسطيني إلى اطفال العالم ) ( ) ، وقصة ( البطة الصغيرة ) ( ) والقصة الأخيرة على الرغم من أنها تحمل فكرة جميلة لكن اسلوب طرحها فيه شيء من التكلف ، حيث جعل الكاتب البطتين تناقشان قضية مهمة تشمل خطورتها كل الوطن العربي ، ولو كانت الشخصيتان ادميتين كأن يكون اب وولده ، لكان التساؤل حينئذ في موضعه . فضلاً عن ان التفسير السليم للقضية سيكون منطقياً أكثر . ويمكن القول من أهم مميزات المؤثر السياسي انه افرز الخط الثوري الواقعي ، في كتابة القصة للطفل ، فقد ظهر نوع من القصص التي تشد انظار الطفل إلى القضية القومية المهمة ومقدار خطورتها الحقيقية على مستقبل الطفل العربي وحريته واستقلاله وهي قضية فلسطين.

فجاءت معظم قصصهم في هذا الباب ، وفي بعض الأحيان يتقصد الكاتب الإشارة إلى القضية الفلسطينية ضمناً وسأورد أمثلة بهذا الصدد لاحقاً .

ونؤكد ان الكاتب ( طلال حسن ) ( ) اهتم بالقضية الفلسطينية منذ قصصه الأولى ، وكتب العديد من القصص وافرد لها مجموعة خاصة وهي ( البحر ) في عام 1978 . وكانت قصة ( الحمامة ) ( ) من القصص الطويلة المهمة التي تدور أحداثها حول القضية الفلسطينية ، وهذه القصة تدعو الإنسان العربي إلى ضرورة الصمود لأن هناك أملاً على الدوام . ومن قصصه أيضاً ( جدي قال لي ) و( كلهم ابنائي ) و( البندقية والطريق ) و( على الطريق النصر ) ( ) . ومثلها أيضاً قصة ( الأرض والجذور ) ( ) وقصة ( السماء لا تمطر لعبا ) ( ) وقصة ( البندقية ) لمحمد سمارة( ) . وقصة ( أرض النار ) ( ) وقصة ( دعوة للأمل ) ( ) وقصة ( القطار الذي سيصل حتماً ) ( ) وقصة ( السترة الجميلة ) ( ) وهي من القصص التي لم يذكر اسم مؤلفها ، وتهد هذه القصة من القصص الجميلة التي حافظت على بناء الحدث وتسلسله من البداية متجاوزة للعقدة ، حتى الخاتمة ، فمن يقرؤها لا يجد فيها عقدة ظاهرة ولكن الطفل يشعر بالأمل والرغبة الشديدتين في التعامل مع الحياة بكل الحب على الرغم من الحرمان الذي يعاني منه . وقد جاءت الإشارة الضمنية إلى القضية الفلسطينية خلال الحوار بين الطفل ( علي ) وزميله ( هشام ) .

وقصة ( الأرض ) ( ) ، التي لم يذكر اسم مؤلفها أيضاً . وقصة ( القمر خلف الاسلاك ) ( ) ، وقصة ( مرصد رقم3 ) ( ) .

وتجب الإشارة إلى ان هذه القصص تعمل على إعداد الطفل ، اعداداً صحيحاً في المشاركة لما تتطلبه عمليات التحرير من بسالة وشجاعة واستعداد للتضحية ولكن يجب ان نجعل الطفل يحبها أولاً ، وألا ينفر منها .

وهنا يأتي دور ( الوظيفة المعيارية ) في ثقافة الأسرة ، وكيفية الاستفادة منها في ترسيخها لدى الطفل ، ( فالمعايير تحافظ على رسوخ العادات واستقرارها وعلى تماسك الجماعات الاجتماعية وتعمل على ترابط الأفعال وتقييمها وعلى استثارتها وتوجيهها .

وتدلنا على الأساليب السلوكية السديدة ، التي خضعت للإختبارات والمراجعة في الممارسة العملية ، وتوخي المعايير باستخدام معارف معينة وتحريم معارف أخرى . وتعتبر المعايير رموزاً للانتماء الاجتماعي والثقافي .

أما إذا تعرضت المعايير للخلط والمسخ ، فإذ ذلك سيكون أساساً لظواهر ثقافية غير صحية كالإغتراب والاختلال ، والعفوية في إدارة الحياة الانتاجية والاجتماعية وغير ذلك من العلل الاجتماعية والسلوكية ) ( ) .

وتأتي أهمية ( الوظيفة المعيارية ) في تقييم ما تنتجه السلاسل القصصية الغربية مثل سلسلة ( ليدبيرد ) التي تقدم لأطفالنا ( سياسة الغالب للمغلوب ، والقاهر للمقهور فمن مصلحة الاجنبي ان يغيب فيها باستمرار عامل الصراع بين الطرفين والحلول المقدمة للمشاكل الاقتصادية ناجزة وهينة ولا تحتاج إلى ثورة ، وانتفاضات ، وضرب روح المبادرة والاعتماد على الذات ، والترغيب بالاستسلام ، والظلم لأن هذا يدفع القوى الغيبية إلى التدخل كما في قصص ( سندريلا ) و( القدر السحرية ) و ( الهر أبو جزمة ) ويكون البطل البشري عاجزاً – بكاء ، ومستسلماً بينما يكون البطل غير البشري ، قادراً ، متفوقاً ، مستنفذاً ) ( ) .

كما افرز المؤثر السياسي اسلوباً فكرياً وأدبياً جديداً ، يمكن أن يعد ( الوجه الجمالي للثورة ) أو ( الصف الجديد ) الذي يدخل إليه اطفالنا من الناشئة يكتسبوا فيه ومن خلال القصص والحكايات ، أهدافاً جديدة ، فضلاً عن كونها جميلة ، فهي ممكنة ، ومهمة في الوقت نفسه ، وتشكل النواة الأولى ، لبناء طفل ذكي مثابر وطاهر النفس حين يطلع على الصفات والفضائل في ابطال القصص ويتمنى ان يتعلمها ويمارسها .

إذ بدأت تظهر قصص تتحدث عن المنبع الأساس الذي تفيض منه المعاني كلها ، التي تتشكل منها ملامح الإنسان وهما ( الروح والعقل ) كما في القصة ( الوجه الضاحك ) ( ) للقاص حسن موسى التي تتحدث عن ملك ، هرب الناس منه ، لأنه كان مغروراً ، وغاضباً على الدوام ، حتى شوَّه الغضب وجهه ومسخه فصار مرعباً فاستدعى فناناً مبدعاً صنع له قناعاً أسماه ( وجه الحب ) ، وصار الملك يدور في المدينة بوجهه الجديد وقد اجتمع الناس من حوله فرحين بلطفه ، وسلوكه الجديد ، غير ان الملك الذي افرحه حب الناس له ، صار يتألم لأنه ملَّ قناعه الذي يضعه على وجهه . وقرر التخلص منه ، وأصبح في حيرة شديدة خشية من ان يفقد حب الناس له ، وكانت المفاجأة الكبيرة حين خلع القناع إذ وجد نفسه في المرآة أمام ملك جميل ، بوجه ضاحك وعرف ان الحب هو الذي يرسم معالم الإنسان وكذلك الكره .

سوى ان اللغة العالية التي استخدمها في بعض مواضع القصة اثرت في البناء الفني لها .

ومنها ( أحجار الشارع تقرع مثل الطبول ، وسباق بلا منافس ، والنهار ، والشمس الحزينة ، واشجار بلا خضرة ، وطيور كفت عن التغريد ) .

ومثلها قصة ( النخلة )( ) ، لحسب الله يحيى ، حيث استخدم الكاتب فكرة صحيحة وهي التفكير بنتائج التجربة والأمور قبل مباشرتها ، ولكنه في الوقت ذاته جعل من الطفل خاطئاً وناصحاً لنفسه ، في آن واحد . ووضع عبارة فخمة على لسان الطفل لا تتناسب وادراكه .

أما قصة ( عادل يرى الحياة ) ( ) ، وقصة ( الحديقة ) ( ) فتحملان صفة جمالية عن الوجه الأخضر للحياة وتعلم عادات جميلة .

والقصص التي تصقل روح المعاملة الصحيحة مع الآخرين ، واثبات الذات من خلال العمل الصادق والمبدأ السليم . كما في قصة ( الوصول ) ( ) وقصة ( البلبل ذو الريشة الزرقاء ) ( ) ، التي تؤكد قيمة عدم التنازل عن امتلاك الشيء بغير وجه حق . وقصة ( النورس والموجة ) ( ) . التي تعلم الطفل الابتعاد عن غرور الجهلاء الذي يؤدي إلى الهلاك . وقصة ( الولد الذي فقد ساقه ) ( ) . التي تؤكد للطفل ان قوة الإنسان لا تكمن في عضلاته فقط ، إنما في عقله وبإمكانه توجيه أفعاله خلالها.

وقصة ( الصبي والشيخ الطيب ) ( ) ، التي تعلم الأطفال الالتزام بالوعد ، واللجوء إلى المهنة الشريفة التي يتعلم منها الانسان حرفة مفيدة .

وتجب الإشارة إلى أن فكرة الحلول من قبل الكبار كانت فكرة سائدة في معظم قصص المزمار ، فليس هناك اقتراحات سليمة يقترحها الأطفال ( ابطال القصص أنفسهم ) كحلول للمشاكل التي يقعون فيها ، على الرغم من انهم في الغالب عمال وحرفيون .

وقصة ( الصافرة ) ( ) ، التي تتصل بالوعود والايفاء بها على ان يكون اهتمام مشترك من الطفل ، وتعني أيضاً ( لا يمكن ان ينال إلا من يعطي ) ، وقصة ( كلام كبار ) ( ) وهي من قصص اثبات الذات من الأطفال في محاولة منهم لمحاكاة الكبار ، ويكون ذلك بالعمل لا بالكلام . ومثلها قصة ( الأشجار والفأس ) ( ) . وقصة ( هدية عيد الميلاد ) ( ) التي تتحدث عن صديقين أحدهما غني والآخر فقير ، لكنهما مخلصان لبعضهما .

ولولا ان الكاتب استخدم فيها حواراً خطابياً على لسان غسان موجهاً إلى صديقه علاء ، ولا يمكن ان يصدر من الصغار بهذا المفهوم العالي لكانت القصة من أروع القصص الناجحة لتلك المرحلة ، وذلك لاستخدام الكاتب المقدمة الأليفة التي تجذب الطفل إلى العقدة والتي هي على بساطتها تشكل هماً من هموم الطبقة الفقيرة ، والحل الجميل والمعقول ، في خاتمة القصة والذي ينم عن تضحية كبيرة من الطفل ) علاء ) والحوار المقصود بقولنا هو كالآتي :

( يا صديقي – علاء ، أن الفقراء ، يخلقون أنفسهم بعملهم اليومي ، لذلك فكل يوم عمل ، هو عيد ميلاد للفقراء أنني أرى اخوتي يولدون من جديد كل يوم بعد ان اقدم لهم غذاءهم الذي وفرته بعملي ، فلو تركت العمل ، فهل يستطيعون ان يواصلوا حياتهم بلا غذاء ) ( ) .

- أما المؤثر الثاني في قصص الأطفال في مرحلة السبعينيات فهو ( مؤثر التخطيط لطبيعة ثقافة الطفل في مرحلة الثورة ) إذ أن كل ما ينشر من المطبوعات التي صدرت في بداية السبعينيات ( مجلتي والمزمار ) يتماشى ، وخطط الثورة وطبيعة سياسة البلد ، التي كان هدفها المباشر توجيه الطفل لخدمة المجتمع وجعله يلتفت إلى مسألة مهمة من حياة الفرد وهي الارتباط الكبير بالوطن والأمة ، والتمسك ، بالقومية العربية وقد وضح الاستاذ ( عبدالله السامرائي ) وزير الثقافة والاعلام في عام 1969 آنذاك هذه المفاهيم في مقالته الافتتاحية للمجلة :

( تُعنى الأمم المتطورة بالطفولة عنايتها باثمن ممتلكاتها وقد غدا من أبرز الواجبات الملقاة على عاتق الدولة قيامها بتيسير وسائل الرعاية والثقافة الموجهة للنشئ ، الذي سيستلم ذات يوم مسؤوليته الطليعية في الوطن ، ووزارة الثقافة والاعلام حين عزمت على إصدار ( مجلتي ) وعلى الرغم من الصعوبات ، وضعت هذه المبادئ أمامها ، وهي تلمس واقع الأطفال في بلادنا الذين تتجاذبهم مع شديد الأسف المجلات المسمومة التي تقدمها لهم المطابع الغربية ، بلغة عربية وبصور مغرية ، جذابة ، وتتجاذبهم أيضاً مجموعة من المبادئ الخاطئة في التربية والتوجيه الثقافي .

كذلك فأن وزارة الثقافة والاعلام تلامس واقع المرحلة التي يمر بها عراقنا الحبيب ، وامتنا العربية الصامدة ، في المعركة السياسية والعسكرية والثقافية مع الصهيونية والاستعمار ، وتبعاً لذلك فأنني اضع امالاً كبيرة على هذه المجلة وانتظر ما ستقدمه من نتائج كما أتمنى للقائمين على تحرير مجلتي ان يضعوا نصب اعينهم الكلمة المدروسة العلمية ، والصورة الهادفة والقصة والقصيدة ذات المضمون الهادف فأن هذه المجلة التي نقدم لها جميع امكاناتنا بما يتلاءم ومرحلة امتنا العربية الصامدة ، واخيراً فأن المبادئ التي تنتهجها ( مجلتي ) ينبغي ان تنبع من تصورنا القومي التقدمي للتربية الذي يهدف إلى خلق المواطن المؤمن بتربته ووطنه وامته)( ). ولذلك كانت أغلب القصص تصب ضمن هذا التوجه كما في قصة ( الوردة والمدفع ) ( ) وهي من أولى القصص الناجحة التي نشرت في مجلتي ، وكانت تعتمد الحوار العفوي للشخصيات كالوردة والطيور ، وذلك يختلف عن الانطاق القسري والمباشر .

وقصة ( فرحة الشاعر ) ( ) حين غادر تمثال الشاعر العراقي معروف الرصافي مكانه ، وتجول في شوارع بغداد فتردد على اسماعه كلمات جديدة وقرأ عنوانات لمؤسسات لم يسمع عنها من قبل .

ولكي يكون الناشيء صلباً ومهتماً ومسؤولاً تبرز لدينا ثلاثة أنواع من القصص بدأت تعلم الطفل قيماً ، لابد له من الاطلاع عليها مثل الصبر ، وتحمل المسؤولية وعدم الاستسلام لليأس ، وضرورة المجابهة والتحدي ، وقد ركزت ( المزمار ) على هذا النوع من القصص بعدَّها مجلة يكتب فيها للناشئة .

النوع الأول : القصص التي تشد الطفل إلى المهمات التربوية المناطة به وأولها الاهتمام بالواجب المدرسي ، وبنصائح المعلمين ، والتركيز على ذلك المكان الذي يكون فيه اللقاء مفتوحاً مع أقرانه ومع المعرفة . ويمكن ان نسمي هذا النوع من القصص ( القصص المدرسي ) فهو يوضح حقيقة كبيرة للطفل مفادها ( ان العلم هو السلاح المهم والخطير الذي يمسكه الطفل ويجب ان يحافظ عليه ويطوره وباستمرار للوقوف في وجه أعدائنا ) فجاء العديد من القصص التي تصف أجواء المدرسة وتشجع عليه( ) . وإنَّ أهمية هذا النوع من القصص تسهم في رسم علاقة مهمة بين الطفل والمدرسة وابويه إذ تؤكد هذه القصص على ضرورة استفسار الاباء عن أبنائهم ومتابعة تصرفاتهم وجهودهم وحصيلة عملهم خلال العام ومنذ الأسابيع الأولى ( لأن الانفصال التام بين المدرسة والبيت سبب أساسي في هدم التعليم وتهديم الطفل بحد ذاته وعلى الآباء أن لا ينسوا أطفالهم في المدارس دون سؤال ، ويمتنعون عن الإجابة في الوقت نفسه عن باقي الاسئلة التي لا يجرؤ أطفالهم ان يسألونها لمعلميهم ) ( ) .

أما النوع الآخر من القصص فيمكن أن نسميه ( بالقصص المستقبلي ) ولا نقصد به توقعات الناس عن المستقبل العلمي ، للإنسان وللأحداث التي يمكن حصولها مستقبلاً . وإنما هو أشبه بمساندة جديدة لموقف الطفل ، وكأن الكاتب يأخذ الطفل من يديه ويفتح له أبواب الحياة على مصراعيها . ويجعل من هدفه في الحياة الأمل البعيد الذي يعني بتحقيقه من أجل نفسه والآخرين . ومن هذه النماذج قصة ( المستقبل لنا أيضاً ) ( ) ، التي تنتهي بمقولة المعلم التي تنطبع في ذهن التلميذ ( لقد أصبح كل شيء لنا ، ليس الرز وحده ، وإنما المستقبل أيضاً ) .

وقصة ( عصام يبتسم ) ( ) ومغزاها ان العمل من أجل الوطن يعني البناء للمستقبل . وقد جسدت هذه الأفكار واضحة في قصة ( لوحة المستقبل ) ( ) وقصة ( تعاون وضحكة ) ( ) . وقصة ( من أجل ان نبتسم ) ( ) وقصة ( حتى الصغار ) ( ) . وأن بعضاً من القصص المستقبلي ، الذي برز في مرحلة السبعينيات قد اهتم بإظهار الجانب الصعب من المستقبل ، والتهيؤ لتغيراته ، المفاجئة ، وهذا النوع من القصص يساعد على بناء الأساس الصلد في الطفل ( الناشئ ) ويعلمه مواجهة المصاعب والتفكير في الحلول المناسبة لحل الأزمات ، وأحياناً عليه ان يكون البديل لمصدر الرزق في الأسرة ، والاهتمام بشؤونها . وقد افترشت هذه القصص غالبية قصص المزمار ، ويدور الحدث فيها حول العقدة الأساسية وهي مرض الوالد أو وفاته ويضطر الصبي الكبير في الأسرة لترك الدراسة والعمل لكسب الرزق ، واحياناً يضع الكاتب حلاً للصبي يجعله يكمل مرحلته في الدراسة المسائية كما في قصة ( هدية عيد الميلاد ) لصلاح محمد علي ، أو العودة إلى محو الأمية بعد فوات الأوان كما في قصة ( رياح جديدة ) للكاتبة هناء العزاوي أو ايجاد عمل شريف للصبي وإكمال دراسته كما في قصة ( الصبي والشيخ الطيب ) لعادل العامل ، وقصة عامل النول لزعيم الطائي وقصة ( ماء الأفكار النافعة ) ( ) .

أما المؤثر الثالث لقصص مرحلة السبعينيات فهو الارتباط الكبير لكتابنا في العراق بالموروث الشعبي والبيئة العراقية وأجوائها .

ويُعد المؤثر الشعبي من المؤثرات الأدبية العميقة التي نمت وترعرعت اجواؤها، في نفوس كتابنا وبدورهم منحوهم إلى المتلقين من جمهور الأطفال .

ومن خلال لقاءاتنا مع اغلب من كتب للأطفال في العراق وجدنا ذلك الصدى القديم لأصوات الجدات ما زال غائراً في اعماقهم ، علماً أن أصغر من كتب للأطفال وخاض هذه التجربة في مرحلة السبعينيات لا يقل عمره عن الخمسين عاماً حالياً .

وفي مقابلة مع الاستاذ ( رياض السالم ) حول أثر الموروث الشعبي في قلم الكاتب العراقي أجاب ( أنا رجل من مدينة البصرة ، ولذلك فاني ممتلئ بالموروث والحكايات الشعبية ويبقى لديَّ ذلك الارتباط النفسي مع التراث ديمومة مستمرة ، وأن الكاتب الذي يبتعد عن موروثه لن يقدر ان يمتع الطفل ويتواصل مع تاريخه في آن واحد . وينبغي ان نعترف ان ليس جميع الحكايات الشعبية هي للأطفال لأن الكبار في مرحلة من مراحل العمر كانوا يجتمعون لسماع الحكايات الشعبية وليس الطفل فقط . وأن إعطاء ( القاص ) الدور إلى شخصية ( الجدة ) أو ( الجد ) سببه ان بعض الحكايات الشعبية العراقية فيها تفاصيل وألفاظ مخجلة ، ولكي نبعد شخص الأب أو الأم عن هذه المسؤولية نعزو الحكاية للجدة ، على اعتبار أنها كنز من التراث ، والمعلومات وان ما تقوله محبب ولا تؤاخذ عليه كثيراً . وان في تراثنا الشعبي الكثير من الومضات والأفكار التي يمكن ان تعدَّها الام المعاصرة وتحكيها للأطفال ، بإعداد عصري حديث مستمدة ذلك من احتفاظها بالأصل ، الأول من القصة ، حين سمعتها وهي طفلة ) ( ) .

أما الاستاذ عبد الآله رؤوف ( فيؤكد أن الارتباط النفسي والتربوي للكتاب بالموروث الشعبي ، يُعد ارتباطاً ، متبادلاً ، ومتناقلاً في آن واحد ، واني لأجزمُ ان الطفل لا يحب قصص الحيوان أو أي نوع آخر من القصص بقدر حبه ، للقصص الشعبي التي تبدأ بعبارة كان يا ما كان ، وسحرها الكبير ، على النفس ، وعلى الرغم من كل ما يحيطه من المؤثرات الحديثة ، من تكنولوجيا وإثارة تلفازية وإذاعية ) ( ) .

أما القاص ( حسن موسى ) ، فكان النموذج الصحيح لذلك الموروث الشعبي في مرحلة السبعينيات فضلاً عن البيئة الريفية التي أكثر استعارة صوره القصصية منها وهي بيئة الريف الجنوبي إذ لا تخلو قصصه من صوت الماء ، أو لون الأرض ، ودون ان يأتي ذكره للنخلة والساقية والطين ، فقد وظف البيئة العراقية في الريف ، من أرض وانسان وحكايات شكلت منها قصصه ، للأطفال . كما في قصة ( المياه الحمراء ) ( ) ، حيث وصف القاص واحدة من لعب الأطفال الشعبية في الريف . وفي قصة ( النخلة المسكونة ) ( ) استخدم القاص لعبة شعبية ريفية وهي لعبة ( حاس باس ) ونقل في قصته بعض المعتقدات التي تشيع بين الأطفال حول ظواهر غامضة ، ويعتقدونها أنها ظواهر سحرية . حتى يصل إلى مغزى القصة وهو ؛ على الطفل أن لا يخاف من دون مبرر ، ويؤمن بالخرافات ويبتعد عن الحقيقة وعن التجربة لأنه يخاف وعليه اكتشافها بوعيه ومعرفته ، وهو معرَّض للعديد من الظواهر الصعبة والغريبة مستقبلاً .

وقصة ( الحنين ) ( ) ، وفيها تعلل الجدة من خلال حكاياتها سبب نواح الفاختة ، وتعد من القصص التعليلية للأطفال ، لكنها مرتبطة بالتراث ، وقصة ( المشحوف الآخر ) ( ) وهي نقل صادق من حياة الهور . ويقول القاص حسن موسى ( إنّ الحكاية هي القاسم المشترك لكل صنوف أدب الأطفال والوانها ولأنني عشت في بيئة كان واقعها مبنياً على السحر والتخيل ، أو أغلبه . يشكل الجان والاولياء المركز في حياة تلك المناطق وروحها ، من هناك كانت الحكاية الشعبية هي الموروث الدائم ، وحفظتُ من تلك الحكايات الكثير ، وسمعت من الامثال الكثير أيضاً ، كما كان لكل فعل حي بين كائنات تلك المناطق حكايته وسببه ) ( ) كما في قصة الحنين عن نواح الحمامة .

وكان من أهم مميزات القصة في مرحلة السبعينيات ؛ ان القصة في هذه المرحلة لم تتخلص كلياً من بعض الاخفاقات التي كانت تلامسها في المرحلة التي سبقتها ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كبيرة في توقف التعزيز الجديد لقصة الطفل وظهور محاولات جادة في الكتابة له بعد الثورة .

ويمكن ملاحظة أن أغلب قصص الأطفال في العراق ( ارتبطت على اختلاف أنواعها بواقعهم المعاش واتصلت أيضاً اتصالاً كبيراً بأحاسيسهم ومداركهم ، ومن هنا جاء البعد السياسي واضحاً في هذه القصص سواء أكان هذا على المستوى القطري أم على مستوى الأمة العربية أم جاء في إطار عالمي . فقد احتوت قصص الحيوان والقصص الإنساني التعليمي ، وبقية الأنواع الأخرى من القصة على خلفية سياسية واضحة وهذا أمر حسن ما دامت السياسة جزءاً مهماً من الحياة ، ودافعاً أساسياً للتطور والتغيير ) ( ) وعلى الرغم من أن التجربة كانت متماثلة بين كتابنا الذين كتبوا للطفل ، لأنهم اجتازوا المرحلة الزمنية نفسها من تاريخ العراق وتأثروا بالظروف والاجواء الأدبية والسياسية والتاريخية نفسها مع بدايات التجربة في باقي الأقطار العربية مع تطورها .

لذا تعد مرحلة السبعينيات مسيرة دقيقة ومرحلة راسخة ومهمة لقصة الطفل في العراق .

وهي أيضاً تجربة جادة ، ومتميزة ، حاولت بتقدم السنين ان تتطابق والشروط الفنية لكتابة أدب الطفل كالعناية بالشخصيات لمعرفة الكتّاب أن الطفل يوازن باستمرار بين موقفه وموقف بطل القصة في اثناء قراءتها وينطق كلاماً شبيهاً بما ينطقه البطل في القصة ، أو ينفذ أعماله ويقتدي بتصرفاته إذا كانت في حدود التوجيه الصحيح .

وفي الواقع ان الموازنة التي تقود إلى التقمص مهمة جداً لأنها معيار لقوة الفعالية التربوية للقصة ، فإذا كان البطل ايجابياً يكون الطفل بدوره مستوعباً ، لعوامل هذه الايجابية وأسبابها لدى البطل ، وإذا كان سلبياً ، فالطفل عندئذ ، يتجنب تلك الاخطاء ، بعد ان يظل يفكر بها مراراً ، وبردود أفعال الشخصيات التي تحيط بالبطل ، يوجه أسئلة عديدة لمن حوله عن ذلك الفعل الخاطئ ، وأسبابه ، فهو يريد ان يتفحص العينة الخاطئة أكثر مما يتفحص العينة الصحيحة لأن الأولى تثير فيه الدهشة والاستغراب والعينة الأخرى هي عينة مألوفة تشكل الغالبية العظمى من رفاقه.

تميزت قصص السبعينيات بنصوص واضحة ، ومعالجة قصصية جيدة مع توفير عنصر التشويق ( والتشدد في إظهار عنصر الخيال كقوة تعمل بموازاة الحياة المعاشة ) ( ) .

فضلاً عن القيم التي يغرسها القاص في سياق القصة الهادفة لمعالجة الموضوع ، فغالباً ما تكون قيماً متنوعة ، إذ كانت القيم الاجتماعية أعلى القيم وتأتي القيم الأخرى متفاوتة أما القيم المعرفية فكانت تحث على الاهتمام بالمدرسة والدراسة . وتفتقر إلى بناء الحس الأدبي عند الطفل بتعويده على قراءة القصص والمجلات الخاصة به ، لإغناء ميوله خلالها . والاستفادة من حب الاستطلاع الذي ينمو مع الطفل منذ مراحله الأولى . ففي إحدى نتائج الاستبيان عن مطالعات الأطفال في العراق ( وجد أن قراءات الأطفال كانت تتضمن مجلات الكبار أيضاً ، فقد ذكر الأطفال انهم يطالعون مجلات مثل ألف باء ، والتضامن ، وكل العرب ، والوطن العربي ، على سبيل المثال لا الحصر وهذا يعني أن الطفل يطلع على كل ما تصل إلى يده من مجلات الكبار التي يقتنيها الأهل وعدَّها الطفل جزءاً من قراءاته ) ( ) .

ومن خلال بحثنا في مجلة المزمار وجدنا قصة تحتوي على قيمة معرفية تشجع فيها الام ابنتها على قراءة الكتب ، بعد أن تعدها بهدية تجلبها لها بعد عودتها من العمل( ) .

وكذلك ( نظارات العم فرج ) ( ) فهي تحتوي على قيمة معرفية أيضاً .

ان القصاصين كانوا ينتقون مقياساً عاماً للفظ ، يعتمد على الفصاحة والبساطة والوضوح ، إلا بعض القصص التي تبتعد عن قاموس الطفل اللغوي الذي يتعامل معه في المدرسة والحياة العامة وهذه لا نجدها في قصص بعينها فقط ، وانما نجدها في اسلوب قصاصين بعينهم ، مثل طلال حسن ، وحسن موسى ، وفاروق يوسف.

وذلك يعود أما لمسيرتهم الطويلة في كتابة قصص الكبار ، أو لتميز خطهم الأدبي ، في التعبير أو لسعة الخيال وتأثره بالبيئة فيلجأ القاص لاستخدام التشبيهات والاستعارات بصورة تلقائية مبالغ فيها في بعض المواقع ، حتى تصبح عسيرة جداً على فهم الطفل ، كما في قصة ( زينب وعلاء الدين ) ( ) حيث يرد في القصة ( للربيع لون الحلم ، والأرض ماء احمر في الربيع ، والعالم طيف شمسي ) ونحن لا نريد أن نسهب في الحديث عن اللغة والاسلوب في قصة السبعينيات لأن الدكتور صادق جعفر قد درسها مستخدماً العديد من النماذج القصصية كأمثلة .

ويمكن الاشارة إلى أن تنوع القصص في هذه المرحلة وكثافة تأليفها افرز مجموعة من القصص التي توجهت نحو خاتمة معروفة سلفاً ، ومتكررة في أغلب القصص أما الأخاديد السردية التي تقود إلى الخاتمة فتختلف في طبيعة رسمها من قاص لآخر وتتمايز من تجربة لأخرى ، من حيث المادة الأدبية التي يصبها القاص في تلك الأخاديد وتعتمد على اللغة وطبيعتها ، والخيال وأشكاله . مثل القصص التي تدعو إلى التمسك بالوطن والإصرار على تلك الفكرة ، أو أن ما يملكه الإنسان يجب ان لا يتخلى عنه كما في قصة ( الأشجار والفأس ) . لجمعة كنجي ، وقصة ( الحمامة ) لطلال حسن . وقصة ( البلبل ذو الريشة الزرقاء ) لعبد الرزاق المطلبي.

والاصرار على العمل الصحيح بالأرادة كما في قصة ( النهر والصخر ) لجعفر صادق ، والاصرار على النجاح كما في قصة ( يوم ريفي ) ( ) لحسن موسى أو القصص التي تتحدث عن نماذج المغرورين الذين يخدعون ببساطة ويسببون نوعاً من الخسارة في محيطهم الذي يعيشون فيه( ) .

وظهور بعض القصص التي تحمل مفاهيم جديدة عن العمل والحرية مطروحة باسلوب مميز وجديد ( ) .

احتلت قصص الجماد المرتبة الرابعة لقصص السبعينيات بعد قصص الإنسان والحيوان والنبات .

ولكن ما يدعو للدهشة أن نجد قصصاً للجماد في العددين الأول والثاني من مجلة مجلتي( ) .

ويبدو ان الكتاب يعتقدون أن تناول الشيء الحي أو المتحرك يستقطب اهتمام الطفل عند تأليف قصة له لأن العوالم الحية ، المحيطة بالطفل لها الأولوية ، أكثر من قصص الجماد ، ويعتقدون ان قصة الجماد تصلح ان تكون مصورة ، ومتحركة ، كالأفلام والرسوم المتحركة ، لا قصة مقروءة ، لأن الأشياء الحسية قريبة من الطفل على العكس من الأشياء الجامدة ( ) . وان النقص الحاصل في قصص الجماد كما يعلله الشاعر والقاص فاضل عباس الكعبي ( هو صعوبة استنطاق الأشياء ، لأنها تحتاج إلى قدرة عالية من التجسيد القصصي للأطفال ولهذا نجد أن الكثير من الكتاب يعزفون عن هذا الاتجاه في التأليف القصصي ، وإن وجد فهناك ، نماذج قليلة منه ، فقط تصلح للأطفال ، كما في قصة ( العروة المكسورة ) لفاروق سلوم( ) .

ويعتقد السيد رياض السالم ( ان في العراق وفي مرحلة السبعينيات التي تعد مرحلة الذروة في التوجه للطفل والكتابة له ، كانت الأفكار السياسة هي السائدة وقد حدَّت من تناول موضوعات الجماد باعتبار أن الفكرة الأساسية في هدف التثقيف السياسي ، المقدم للطفل ، يرتبط بالواقعية الثورية ، وأن تطويع الأبطال كشخوص في حكايات الجماد يجدها قليلة الجدوى وضعيفة التأثير ) ( ) .

وأن رأى السيد رياض السالم فيه شيء من الصحة ، ولكن في الوقت نفسه بالإمكان توظيف شخصية الجماد على المحمول الرمزي ، ويمكن استخدامها في المجال الواقعي الثوري كباقي الشخصيات الأخرى .

أما الدكتور جعفر صادق ، فإنه يعتقد ان الكتاب الاوائل من مرحلة السبعينيات كانوا يقلدون النماذج الناجحة والمنشورة من قصص الأطفال وبخاصة إذا كانت شخصياتها مستمدة من عالم الحيوان ، ولعدم وجود نماذج تكون شخصياتها من الجماد جعلهم لا ينتبهون الى استثمار هذا النمط من الشخصية في بناء قصصهم( ).

أما عن وجهة نظرنا فإن قصص الجماد تحتاج إلى قدرة وخيال مبدع ، وانها تستوعب الرمز ، أكثر من غيرها من القصص . وعلى الكاتب ان يتصرف مع المغزى والثيمة من القصة بشكل منطقي ويحمل معنى من معاني الحياة وان كانت القصة عن الجماد .

وعن الأنواع الأخرى التي تميز حضورها في قصص السبعينيات فهي ( قصص البطولة ) ( ) ، التي ارتبط ظهورها في أدب الأطفال في العراق بتصاعد العمل الفدائي وطغيان الخطاب الثوري على صحافتنا وادبنا .

والقصص البطولي يولع بقراءته أطفال المرحلة العمرية من سن (10-13) وهي معظمها تدور حول البطولات الجماعية التي يقوم بها الابطال المقاتلون ضد الاعداء وغالباً ما تدور حول أحداث الأرض السلبية فلسطين ومحاولات مهاجمة الأعداء بشتى الأساليب والطرائق ومنها العمليات السرية ، وعمليات التسلل إلى العدو وضربه ، وعمليات تفجير المواضع المعادية وغيرها من القصص .

أما القصص العلمي ، الذي ينبغي أن يكون ردَّ فعل واقعي لحركة التغيير والتطور في العراق وعلى الأصعدة جميعها ، فكان على العكس من ذلك ، أي ان القصص العلمي لم ينتعش في تلك المرحلة ، ولم تتوافر سوى نماذج قليلة منه( ) .

ويمكن الاشارة الى إلى ان صحف المرحلة الأولى من أدب الأطفال في العشرينيات قد اهتمت كثيراً بالقصص العلمي ، إذ كان المدرسون حريصين على نقل القصص العلمي من اللغات الأخرى وترجمته بلغة مبسطة ومفهومة ونافعة جداً . كما ورد في مجلة ( التلميذ العراقي ) ، وقصة ( الحرير ومناظروه ) ( ) ، وقصة ( الضفدع ) ( ) ، وهما قصتان علميتان طرحتا باسلوب قصصي سلس وجميل ومفهوم ليستميل الطفل إلى الاستمرار ، بمطالعته ولكن للأعمار من (12 سنة فصعودا) . ومنها أيضاً القصة العلمية (كيف كان الناس يكتبون في الازمنة البعيدة)( ) .

أما قصة ( الصوف ) فهي قصة طرحت الحقائق العلمية من خلال حكاية مسبوكة غير متكلفة .

وتجب الاشارة إلى ان قصص المرحلة الأولى من ( القصص العلمي ) دليل على وجود هذا النوع من القصص وبالتالي عدم تطوره وازدياد نماذجه لعدم الاهتمام به ، وهذا لا يتناسب مع التطور العلمي الحاصل في العراق ، في جوانب الحياة كلها.

وفي مرحلة الثمانينيات سنجد قصصاً علمية تجنح إلى الخيال العلمي المستقبلي، وأن النماذج التي تقرب المادة العلمية للطفل في انموذج قصصي بقيت قليلة حتى في مرحلة الثمانينيات .